المنشآت التعليمية بمعسكر في عهد الباي محمد بن عثمان الكبير

د. قدور بوجلال

جامعة مصطفى اسطمبولي– معسكر

Abstract :

The city of Mascara like the other Algerian cities in famous of its different architectural facilities, which date back to the Ottoman period including religious and educational ones that made Mascara the capital of an important scientific and educational center that attracted scientist and science students from various nearby and remote regions.

These scientific centers have fully achieved their missions. So the appearance of these eventers was strong motivation for the dissemination of education among members of the community.

Keywords: Mascara, scientific, students, educational center.

مقدمة:

شهدت مدينة معسكر[1] حركة ثقافية كبيرة علمية وفكرية خلال العهد العثماني، لا سيما خلال القرن الثامن عشر (18م)، إذ قامت بها مدارس ومعاهد علمية من مساجد جامعة وزوايا صوفية عريقة، نبغ بها علماء أجلاء وفقهاء ذوو الرأي في الشريعة الإسلامية، وشعراء فحول وعلماء متضلّعون في علم التوحيد ولغويون مبرزون ومحدّثون أمناء، ومدقّقون في الرواية ومتصوّفون في القمة ومؤرخين نبغوا في ميدان التأليف، وطلاب علم ومعرفة، ولا نحسب كل من مصطفى الرماصي وأبو راس الناصر، ابن سحنون الراشدي، ابن هطال التلمساني، الطاهر بن حوا، عبد القادر المشرفي، والمصطفى بن عبد الله ابن زرفة الدحاوي، وغيرهم من علماء الراشدية[2]إلا من هذا الصنف من العلماء.

وممّا يلاحظ أنّ الحياة الثقافية ببايلك الغرب– قبل أن يتولى الباي محمد بن عثمان الكبير الحكم–، كانت متدهورة للغاية وتتسم بالخمود والجمود والتحجر. ذلك أن اهتمام السكان كان منصبا بالدرجة الأولى نحو التجارة بخاصة والاقتصاد بعامة، باعتبار

أن التجارة كانت تدر عليهم أرباحا طائلة، إلى جانب أنهم كانوا يضمنون بواسطتها حصولهم على حاجياتهم اليومية. ولعل هذا راجع بالدرجة الأولى إلى التدهور السياسي والتأزم الاقتصادي والتفكك الاجتماعي، الذي عاناه البايلك الغربي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين (16و 17م)[3].

وزيادة على هذا، فلقد كان التعليم بمدينة معسكر ينقصه وسائل التشجيع والتنشيط المعنوي والمادي، وقد وجد ذلك في عهد الباي محمد الكبير، باعتبار أن المدن والمدن الرئيسية بالبايلك الغربي التي اشتهرت بالعلم كادت أن تكون خالية من مؤسسات التعليم وأدواته من جهة. كما كان لانتشار الأمية بمدينة معسكر، أثر كبير في ذلك من جهة أخرى. حيث لم يكن مجال العلم مفتوحا أمام عامة الناس بل كان يقتصر فقط على بعض الخاصة، لأنه كان يتطلب نفقات باهظة لم تكن في استطاعة كل واحد يرغب في التعليم أو الدراسة، حيث كان قلة من السكان هي التي تحتكر هذا الجانب الثقافي وتتميز به دون غيرها[4].

ويبدوا أن الحياة الثقافية والعلمية بمعسكر كانت تعيش الخمود والركود والجمود الفكري قبل تولي الباي محمد بن عثمان الكبير، إذ يصف أبو راس الناصر ذلك الخمود الثقافي بقوله: "...إذ في زمن عطلت فيه مشاهد العلم ومعاهده وسدّت مصادره وموارده، وخلت دياره ومواسمه وعفت أطلاله ومعالمه، لا سيما فن التاريخ والأدب وأخبار الأوائل والنسب قد طرحت في زوايا الهجران، ونسجت عليها عناكب النسيان، وأشرفت شمسها على الأفول، واستوطن فحولها زوايا الخمول يتلهفون عن أنداس العلم والفضايل، ويتأسفون من انعكاس أحوال الأذكياء والأفاضل...."[5].

وما يستنتج مما سبق، أنه قد عانت مدينة معسكر كباقي المدن بالبايلك الغربي من ذلك الركود الثقافي والجمود الفكري والمعرفي، وبالخصوص طيلة القرنين الأولّين من الحكم العثماني. ذلك أنه قبل مجيء العثمانيين كانت معظم المدن بالجزائر مسرحا

للمجالهات الدينية والتعليمية التي أصبحت تضيء بنور معرفتها جميع أرجاء مدن الإيالة الجزائرية، ولعل من بينها مدينة معسكر[6].

وزيادة على هذا، فيبدوا أن مدينة معسكر لم تكن تحظى باهتمام الحكام العثمانيين في بعث وإحياء الثقافة بها، الذين لم يهتموا كثيرا بالثقافة والعلوم أكثر مما اهتموا بالشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية بهاته المدينة، والتي تمثلت في رد الهجمات وقمع الثورات وفرض الضرائب على السكان. لكن في أواخر العهد العثماني بدأ البايلك الغربي يعرف حركة انبعاث ثقافي في ظل إرادة سياسية عثمانية، حيث ظهر محمد بن عثمان الكبير باي المقاطعة الغربية، والذي كان له أيادي بيضاء في تشجيع الثقافة وتنشيطها والاهتمام بأعلامها وفقهاءها ومفكريها، حيث فاق نشاطه في ذلك ما كان في الناحية الشرقية[7]. وبالتالي كان نصيب معسكر وعلماءها من هذا الإصلاح الثقافي بمثابة الانتعاش والازدهار لهاته المدينة، بفعل وسائل التشجيع المعنوي والمادي التي أوجدها هذا الباي. وعلى ضوء ما سبق سنقوم من خلال هذا البحث بدراسة نماذج من المنشآت الدينية والتعليمية بهذه المدينة خلال الفترة العثمانية، انطلاقا من عدة تساؤلات مفادها: فيما تتمثل هذه المنشآت؟ وما مدى مساهمتها في التطور العلمي؟

المنشآت التعليمية بمدينة معسكر ومناهج التعليم بها:

لعل من أهم المقاييس والمعايير، التي تساعد الباحث في الحكم على تطور الثقافة وانتشارها في مدينة معسكر أو الجمود الفكري والركود الثقافي بها خلال العهد المدروس، هي تلك المراكز والمؤسسات الثقافية والعلمية من مساجد، مدارس، زوايا ومكتبات وغيرها، باعتبارها قبلة للمثقفين والعلماء والمتمدرسين والطلبة من جهة، ومنارة إشعاع علمي وفكري وثقافي من جهة أخرى.

ورغم ما قيل عن الجزائر العثمانية عموما والبايلك الغربي خصوصا بانشغال الحكام بها بالشؤون السياسية المتعلقة بالحكم من ناحية، وبجمع الضرائب من ناحية أخرى، بجميع مدن الإيالة بما فيها مدينة معسكر، إلا أنه برزت في الوطن الغريسي الراشدي

ثقافة ذاتية أصيلة، وظهر جيل من العلماء كان لهم الباع الطويل والصيت الكبير ليس في مدينة معسكر فحسب، بل إنّ شهرتهم سبقتهم إلى عدد من بقاع العالم الإسلامي ومؤلفاتهم لتزال ليومنا هذا من أهم مصادر كتابة تاريخ الجزائر الحديث.

كما وجدت مدارس ومعاهد كان لها الدور الريادي في مجال نشر الفكر والثقافة بمعسكر استقطبت حولها عددا كبيرا من طلبة العلم والمعرفة، تمثلت أساسا في المساجد والزوايا والمدارس والمكتبات، وفيما يلي ذكر لأهم المؤسسات الثقافية بمدينة معسكر:

أ- المساجد:

من الواضح أن الكثير من الباحثين عادة ما يختلط عليهم اسم الجامع والمسجد[8] والزاوية، ذلك أن بعض الجوامع والمساجد كانت تابعة لزوايا معينة. كما أن بعض الزوايا كانت تابعة لجوامع ومساجد معينة، إذ أن التداخل ليس في الاسم فقط بل في الوظيفة أيضا، فالجوامع والمساجد والزوايا بمدينة معسكر كانت مخصّصة للعبادة والتعليم من جهة ورباطا وملجأ ومسكنا للطلبة والعلماء من جهة أخرى[9].

ويبدوا جليا أن العناية بالمساجد كانت ظاهرة بارزة في المجتمع المعسكري المسلم، فلا تكاد تجد قرية أو حيّا بمدن البايلك الغربي- بما فيها مدينة معسكر- خاليا من مسجد. باعتبار أن المسجد كان بمثابة ملتقى العباد ومجمع الأعيان ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية، وفي هذا المقام يقول أبو القاسم سعد الله: "...فهو قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة، إذ حوله كانت تنتشر المساكن والأسواق والكتاتيب..."[10].

ومن الملاحظ أنه كانت من وظائف المساجد بمدينة معسكر، إقامة الرابطة بين أهل القرية والمدينة بها خاصة في بنائه وأداء الوظائف فيه، باعتبار أن المجتمع الريفي بمعسكر لم يتأثر بالحركة الثقافية التي أحدثها الباي محمد الكبير، ولعله في هذا المقام يقول صالح فركوس: "بالرغم من تشييد الباي للمؤسسات الدينية والتعليمية، فإن المجتمع الريفي لم يتأثر بالحركة الثقافية التي أحدثها محمد الكبير، وإنما ظل أبناؤه مثل باقي أبناء المجتمع

الريفي الجزائري عامة يتلقون قدرا من العلم في الزوايا، التي كان يديرها المرابطون وشيوخ الطرق الصوفية..."[11].

لقد عمل الباي محمد الكبير على تكثير عدد المساجد والجوامع ذات الوظيفة الدينية والتعليمية والتربوية في مدينة معسكر، وذلك في إطار مشروعه الحضاري الهادف إلى إصلاح التعليم والعناية بالمؤسسات التعليمية. حيث ذكر ابن سحنون الراشدي ومحمد بن يوسف الزياني مجموعة المساجد التي أصلحها الباي محمد الكبير، والتي أنشأها هذا الأخير قبل فتح وهران الثاني سنة 1792م، حيث وسّع هذا الباي من مسجد جامع السوق إذ زاد فيه صفين من الأمام، مما يوحي أن رواد المسجد الجامع قد تزايد وأن ثمة نشاطا علميا معرفيا كان وراء إقبال الناس[12].

وزيادة على هذا، فلقد أعاد هذا الباي بناء الجامع العتيق الذي شيده والده الباي عثمان سنة 1761م، وذلك بعد هدمه وإعادة توسيع مساحته وإحداث خمسة أحواض للوضوء به. حيث جلب لها الماء عبر قنوات وسواقي، إلى جانب استبدال منبره بمنبر أحسن من ذي قبل تفنّن الباي في صنعه[13]. وهو المسمى حاليا بمسجد سيدي حسن الذي تمت فيه مبايعة الأمير عبد القادر الثانية كقائد للمقاومة ضد الاحتلال الفرنسي سنة 1832م[14].

ومما تجدر الإشارة إليه، هو أن تشييد المساجد بمدينة معسكر قد كان عملا فرديا بالدرجة الأولى، فالغني المحسن هو الذي كان يتولى قيادة عملية بناء المسجد والوقف عليه وصيانته، في إطار المساهمة بالتبرعات ونحوها من طرف أعيان القرية أو الحي[15].حيث كان مجهود السلطات الحاكمة في هذا المجال لا يتعدى مجهود الأفراد فالفئة العثمانية الحاكمة كانت غير مسؤولة على بناء هذه المساجد، وإذا بنى أحد البايات مسجدا فإنما يبنيه من ماله الخاص، وهو ما حدث مع الباي محمد بن عثمان الكبير بمدينة معسكر، عند بنائه للجامع الأعظم بها في الفاتح من ذو القعدة سنة 1195هـ الموافق لنوفمبر 1781م[16]، ولعله هو المعروف عند سكان معسكر بجامع العين البيضاء أو جامع الباي محمد الكبير[17].

وزيادة على هذا، فلقد شيد الباي محمد الكبير هذا الجامع من ماله الخاص وعلى أرض اشتراها بأغلى ثمن[18]، حيث صادفته مجموعة من الصعوبات وقت عملية تشييده منها تلك المسبغة التي أثرت على المشاركين في عملية البناء، إلا أن ذلك لم يمنع الباي من مواصلة البناء، حيث أعلن أن كل من لم يجد قوت يومه يتقدم للمشاركة في عملية البناء بأجرة معلومة يستعين بها على توفير قوته، في محاولة من الباي لصد وتحطيم جميع العوامل التي حاولت عرقلة مشروعه الحضاري بمعسكر[19].

لقد كانت هندسة بناء الجامع الكبير والنقش والخطوط به من عمل المهندس ذي الأصل التركي: أحمد بن محمد بن حاج الحسين بن صار مشيق التلمساني[20]، حيث نقشت كتابة بارزة بخط كوفي خارج المحراب من الجهة اليمنى، أوردها ابن سحنون الراشدي بقوله: "... أما بعد: أمر بتشييد هذا الجامع المبارك، خليفة السلطان محمد باي بن عثمان"[21] ضف إلى ذلك، ما كتب من الجهة اليسرى بحروف صغيرة أوردها أيضا ابن سحنون الراشدي بقوله: "انتهى بحمد الله على يد المعلم أحمد بن محمد حج أحسين بن صار مشق التلمساني رحمه الله، في أول يوم من ذي القعدة عام خمسة وتسعين ومائة وألف"[22].

ومن الملاحظ أن الباي محمد الكبير قد أقام بالجامع الكبير ستة عشر حوضا للوضوء جلب لها الماء عبر القنوات والسواقي من أرض تتوفر على ماء، كان قد اشتراها لهذا الغرض، حيث كانت تلك الأراضي تتوفر على ينابيع كثيرة اشتراها هذا الباي من أهلها لتسخيرها في خدمة من يترددون على هذا المسجد[23]. كما قام هذا الباي ببناء مدرسة كبيرة ألحقها بالمسجد[24]. وحتى تؤدي هذه المدرسة دورها الذي وضعت من أجله فقد رتب لها الباي محمد الكبير المدرّسين والنظّار، وخصّص لها الأوقاف الكثيرة للإنفاق عليها، إلى جانب تزويدها بمكتبة غنية بنفائس المخطوطات، والكتب النادرة بذلت من أجل الحصول عليها أموال طائلة[25].

وحتى يمكّن هذا المسجد الكبير أو الجامع الأعظم إحدى المؤسسات العلمية بمدينة معسكر، من أن يلعب دورا هاما في بعث الحركة الثقافية في المنطقة، والقيام برسالته

الحضارية على أكمل وجه، بادر الباي محمد الكبير إلى حبس أوقاف كثيرة عليه لتسد عائدات هذا المسجد وجميع نفقاته ووظائفه ولوازمه. حيث قام بإنشاء حمّام بالقرب من ذلك المسجد سمي بحمّام الأدهم، حبسه على المدرسة والمسجد[26]- وهو المعروف عند سكان معسكر بحمّام البركة الذي مازال قائما إلى اليوم[27]- وصفه ابن سحنون الراشدي بالرائق بناءا وشكلا[28]، حيث اشترى له الباي محمد الكبير حدائق ودورا وحوانيت، كما بني له فرنا وفندقا جديدا بالسوق القديم[29]. ويبدوا جليا أن غرض الباي محمد الكبير من ذلك هو إقامة المرافق العامة، التي قصد من ورائها هذا الباي إعطاء صبغة جمالية لمدينة معسكر[30].

لقد كان الجامع الكبير إحدى المنشآت الخيرية والمؤسسات الدينية والتعليمية التربوية، التي نالت محط إعجاب الكثير من الأدباء والمفكرين، إذ وصفه المؤرخ المشهور ابن سحنون الراشدي في كتابه: "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، على أنه من أهم المؤسسات التعليمية الزاهرة في المجال الأدبي والتاريخي والثقافي، بل وحتى الديني وأنه كان مركز إشعاع حضاري في الحضارة العربية الإسلامية عامة، وفي الحضارة المغاربية خاصة[31]، وأنه امتاز بجماله ودقة بنائه والزخرفة والنقوش بالحروف العربية على جدرانه والعناية بالعيون والإضاءة والنظافة به[32]. وفي هذا المقام أصبح هذا الجامع من المباني الهامة أو من العجائب، حسب تعبير ابن سحنون الراشدي حيث كان الناس يقصدونه للتنزّه والتعجّب لما تميز به من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية وفنونها لا غير[33].

وزيادة على هذا، فلقد قال الآغا بن عودة المزاري بشأنه:"... وبنا رحمة الله –الباي محمد الكبير- الجامع الأعظم، قليل الوجود بالعين البيضاء من بلدة معسكر..."[34]. كما وصفه الأديب الشاعر أحمد بن محمد بن علال القرومي وصفا شعريا في إحدى قصائده، التي مدح فيها الباي محمد الكبير وأعماله الجليلة ومواقفه الجريئة، كبنائه للمسجد الكبير ومدرسته العريقة وتوليته بنفسه إدارتهما بمنطقة معسكر[35]، ونذكر منها بعض الأبيات في هذا المجال حيث يقول:

أَلقِ العَصَـــا وَفُـــكَّ رِحَـــالَ رَكَـــائِبِي بِالمَســـجِدِ المُنشَـــئِ بِـــأُمِّ العَســـكَرِ
المُحكَـــمِ التَّشـــييدِ في شُـــرفَاتِهِ فَتَـــرَاهُ يُحسِـــنُ كالرِّيَـــاضِ المُمطِـــرِ
عَجَبًا مِـــنْ مَســـجِدٍ فِـــي الأَرضِ قَـــدْ حَاكَى السَّمَاءَ تَطَـــاوُلاً فِـــي المَفخَـــرِ
تَحْوِيـــهِ مَدرسَـــةٌ غَـــدَتْ آثَارُهَـــا تُحيِّيـــهِ بِـــالعِلمِ الشّـــرِيفِ الأَشـــعرِي[36]

ومن الملاحظ أن الجامع الكبير بمدينة معسكر لم يقتصر على أداء الصلاة فحسب، بل وكذلك القيام بوظيفة التعليم لسكان هاته المدينة وضواحيها، من خلال إلقاء الـــدروس وتنظيم المناظرات الفكرية بين العلماء[37]، إذ يبدوا أن الباي محمد الكبير كـــان يخطّـــط للجامع الأعظم ليكون قاعدة كبيرة لنشر التعليم بمعسكر والبايلك الغربي عموما، ينافس به جامع القرويين بفاس. ولكن تطوّر الزمن و لم يتحقق له ذلك، فقد نقلت العاصمة إلى وهران بعد فتحها الثاني سنة 1792م، ووقعت ثورة الطريقة الدرقاوية الـــتي عرقلـــت مسار الحركة العلمية والثقافية بمدينة معسكر[38].

ومما لا شك فيه أن الجامع الكبير بمعسكر قد ضمّ عددا مهمّا من الموظفين، يمكـــن حصرهم في خطيب الجمعة، إمام الصلوات الخمس وأربعة مؤذنين وسمّاع وأربعة أساتذة ومقدّم للطلبة[39]، حيث ارتبط التعيين الرسمي لهؤلاء الموظفين بما يتلقّونـــه مـــن أجـــور ورواتب ثابتة من مداخيل الأوقاف والهدايا والعطايا خلال المناسبات، ضف إلى ذلك ما كانوا يتلقونه من نصيب الغنائم[40].

وفي هذا الإطار تأتي محاولة الباي محمد الكبير لتعيين وترتيب موظفي الجامع الكـــبير وملحقاته بمدينة معسكر، من خلال الأوقاف التي حبسها الباي على الجامع الكـــبير[41]، حيث تضمنت أجور موظفي الجامع الكبير بمعسكر ما يلي:

- إمام المسجد الكبير: يتقاضى راتبا معلوما قدره أربعون ريالا.
- أربعون ريالا لخطيب المسجد الكبير.
- ثمانون ريالا لمؤذنّي المسجد الكبير الأربعة، حيث يتقاضى كـــل واحـــد منـــهم عشرين ريالا.

– أربعون ريالا لقرّاء القرآن في المسجد– الحزّابين– صباحا ومساءا، وهم أربعة حيث كان يتقاضى كل واحد منهم عشرة ريالات.

– أربعون ريالا لمدرس صحيح البخاري.

– ستون ريالا للمدرسين وهم ثلاثة مدرسين في الفقه والحديث والتفسير واللغة العربية، حيث كان يتقاضى كل واحد منهم عشرين ريالا.

– أربعون ريالا يتقاضاها مصحّح ألواح الطلبة.

– خمسة عشر ريالا يتقاضاها وكيل خزانة الكتب– المكتبة– الملحقة بالجامع الكبير.

– عشرة ريالات يتقاضاها راوي حديث يوم الجمعة.

– خمسة عشر ريالا يتقاضاها منظّف بيوت الطهارة– مصلح المطاهر–.

– أربعون ريالا يتقاضاها وكيل الوقف– وكيل الحبوس–.

– أربعة سلطاني ذهبا يتقاضاها الطلبة الذين يحضرون دروس صحيح البخاري في كل سنة.

– نصف ريال في الشهر، مخصّص لكل بيت من بيوت الطلبة العامرة لشراء الزيت المستعمل في الإنارة[42].

ومما يلاحظ هو أن مدينة معسكر قد حفلت بنشاطات علمية وثقافية كبيرة تبلورت في مؤسساتها الثقافية، ولعل من بينها مساجدها التي سبقت الإشارة إليها. كما عرفت هاته المدينة أيضا ازدهارا اقتصاديا، بالنظر إلى الأموال المخصّصة إلى الموظفين بتلك المساجد، حيث خصّص الباي محمد بن عثمان الكبير ربع الأوقاف للإنفاق عليها وصيانتها إلى جانب تشجيعه للعلماء والمؤرخين والفقهاء بها، حيث منحهم العطايا والهدايا التي تليق بمستواهم ومكانتهم الاجتماعية والعلمية في المجتمع المعسكري أنذاك[43].

والجدير بالذكر، أن عملية بناء المساجد لدى الباي محمد الكبير لم تقتصر على معسكر فحسب، بل شملت بلدات أخرى مجاورة لهاته المدينة مثل البرج[44] والكرط[45]. حيث عمل الباي محمد الكبير على بناء الجامع الأعظم بالبرج وتوسيعه. وما يلاحظ أنه لم تتطرق إليه المصادر بشيء من التفصيل، فكلّ ما ورد هو إشارة عابرة عرضية في

إحدى المقالات الفرنسية، وفي هذا السياق جاء بناؤه للجامع الأعظم بالبرج[46]. كما أشار الزياني صاحب دليل الحيران إلى جامع بالكرط بناه الباي محمد الكبير، وشعائر إسلامية أخرى لم يشخّصها محمد بن يوسف الزياني بالتفصيل[47].

لم تكن المساجد وحدها المساهم الفعّال في دور نشر العلم والثقافة الإسلامية بمدينة معسكر فحسب، بل كان إلى جانبها مؤسسة ثقافية علمية أخرى، لا يجب على الباحث أن يمر عليها مرّ الكرام، بل عليه أن يقف عندها وقفة التقدير والاعتراف الصّريح، لأنّها هي الأخرى تعتبر مركزا لنشر العلم والمعرفة. فالزوايا وقفت إلى جانب المساجد تارة وتارة أخرى كمدارس مستقلة لتعليم المذاهب الصوفية، فشاركت بدورها في بثّ ونشر وتطوير العمل الجليل وهو تثقيف المجتمع المعسكري وتعليمه.

ب- الزوايا:

من أبرز ميزات العهد العثماني في الجزائر، هو انتشار الطرق الصوفية وكثرة المباني[48] المخصّصة لها في المدن والأرياف، إذ تبوّأت مدينة معسكر بمكانة هامة في الميدان الفكري خلال العهد المدروس لانتشار التعليم في هذا الإقليم بداية من القرن العاشر للهجرة (16م) بتأسيس عدد كبير من الزوايا به واحتضانها مهمة التعليم، كزاوية محمد بن يحي السليماني، وزاوية عبد الله بن عبد الرزاق الإدريسي، وزاوية الشيخ محمد المشرفي الإدريسي شيخ الرماصي، وغيرها من زوايا العلم والمعرفة بالوطن الغريسي الراشدي[49]، وبالإضافة إلى تفوق علمائها في الفقه المالكي، كانت منبع علم التوحيد[50]باعتراف علماء من بينهم الشيخ أحمد المقري[51]الذي قال في حاشيته على صغرى السنوسي، بأنّ سنده في علم التوحيد يتصل بعلماء زوايا الراشدية العارفين بهذا الشأن[52].

وممّا زاد من شهرة مدينة معسكر، هو اكتظاظها وتزاحمها بعدد من الأولياء والعلماء والفقهاء، الذين كان لهم أيادي بيضاء في إغناء تراث الحضارة العربية الإسلامية والمحافظة عليه في العهد العثماني بالجزائر من جهة، واهتمامهم بتأسيس الزوايا لتدريس وتعليم مختلف العلوم والفنون كالفقه والحديث، التفسير، التوحيد، النحو، الصّرف، المنطق،

السيرة النبوية، البلاغة، الشعر، الخطابة، علوم القرآن، التاريخ، الأذكار وعلم التصوف، وغيرها من العلوم الدينية والدنيوية[53].

وعلى هذا الأساس كان بالوطن الراشدي كثير من العلماء والصلحاء، حتى قيل: "أنّ كل دومة[54] في غريس[55] بوليّ صالح"[56]. حيث كثرت الرحلة إلى الوطن الغريسي الراشدي لطلب العلم والمعرفة خلال القرون الهجرية الثلاثة10، 11، 12هـ (16، 17، 18م). إذ برزت زوايا ومعاهد علمية ودينية كثيرة، من ضمنها الزاوية الراشدية[57] والزاوية القادرية بالقيطنة بمعسكر[58]. إلى جانب زوايا أخرى من بينها زاوية الشيخ عبد القادر بن مختار الإدريسي، زاوية الشيخ الخضير الصنهاجي الإدريسي، زاوية الشيخ محمد بن الأعرج السليماني، زاوية الشيخ سحنون بن أحمد الحسني مدرّس المدوّنة وزاوية حفيده الشيخ الهاشمي بن بوشنتوف، وكل هذه الزوايا كانت موجودة بالوطن الغريسي الراشدي، والملاحظ من خلال هذه الزوايا أيضا أنها كانت تتفق في النسب الإدريسي أي النسب الشريف[59].

وممّا تجدر الإشارة إليه، أنّ زوايا المدينة بمدينة معسكر لم تحظ بالأهمية التي كانت لزوايا ريف هاته المدينة نفسها، نظرا للأهمية الكبيرة التي كانت تمتاز بها زوايا الأرياف[60]. حيث كانت كل منطقة من ريف معسكر محروسة بولي من أولياء الله الصالحين، فهو الذي يحميها من الغارات ومن نكبات الطبيعة، ومن طمع الطامعين حسب مزاعم العامّة[61]. ضف إلى ذلك أن هذه الزوايا كانت محطّ الرّحال لطلبة القرآن واللغة العربية والعلوم الإسلامية وملجأ الفقراء والمساكين، تأوي الغرباء والعجزة الذين سبق لهم أن تعلّموا الحروف الهجائية واستظهروا بعض السور من آيات القرآن الكريم. كما أنها كانت تطعم الجائعين وأبناء السبيل، وتقوم بتدريس الفقهيات والعقائد وقواعد النحو والصرف والبلاغة ومجموعة أخرى من العلوم الدينية والدنيوية[62].

وكان إذ اشتهر أحدهم بين الناس أسّس له مركز يستقبل فيه الزوار والغرباء والأتباع، ويعلّم فيه الطلبة ويتبرع الناس لهذا المركز فيكبر ويثرى ويتضاعف قصّاده

ومريدوه ويصبح اسم المتصوف- المرابط- علما على المكان، ويسمى المكان بزاوية سيدي فلان أو رباط فلان[63]. ولعل هذا ما حدث مع الشيخ عبد القادر المشرفي الملقّب بإمام الراشدية، الذي أسّس لنفسه زاوية دينية ومعهدا علميا بمسقط رأسه الكرط أصبح في مستوى زاوية معهد القيطنة[64]، حيث كان مواظبا على بث العلم بهذه الزاوية لدرجة أن قال فيه أبو حامد المشرفي: "...فلا تخلوا زاويته من مائتي طالب في بعض الأوقات..."[65]. وذلك بعد أن توارث أبناءه وأحفاده العلم من بعده بهذه الزاوية، التي اعتبرت إحدى قلاع العلم والمعرفة بالوطن الغريسي الراشدي[66].

كما تجدر الإشارة إلى زاوية أبي راس الناصر المعسكري، التي كانت هي الأخرى إحدى قلاع العلم والمعرفة بمدينة معسكر. إذ كانت مهمّة هذه الزاوية تربية العامّة تربية إسلامية بحتة والمحافظة على الدين الإسلامي، والالتزام بذكر الأوراد وتحفيظ القرآن الكريم لكل من يريد ذلك، ونشر العلم على الأخص منه اللغوي والفقهي وتفسير القرآن وشرح الحديث[67].

وزيادة على هذا، فلقد كانت الدراسة أو بالأحرى مناهج التعليم[68] بزوايا مدينة معسكر تتمّ بطريقتين لسائر العلوم الدينية، تسمى الأولى "بالسرد" ويقتصرون فيها على تقرير المتن مفهوما ومنطوقا، وما يعرض لذلك من إزالة إشكال أو غموض. وفيها يطيلون الدروس بحيث يجعلون الدرس الأول من طلوع الشمس إلى قرب الزوال، والثاني من بعد صلاة الظهر إلى قبيل المغرب، وبهذه الطريقة يتمكّن الشيخ مثلا من إلقاء مختصر خليل في أربعين يوما وألفية ابن مالك في عشرة أيام. وتسمى الطريقة الثانية "بالأصل" لكون السرد فرعا منها، إذ يفتتحون الكتب المراد درسها أواخر الخريف أو أوائل الشتاء فيقلّلون الحصص ويطالعون عليها كثيرا من الشروح والحواشي وغيرها، وبهذه الطريقة فمنهم مثلا من يقرئ المختصر درسين في اليوم فيختمه في قريب من تلك السنة، ومن كان يقتصر على درس واحد في اليوم فيختمه في سنتين[69].

كما وجد للزوايا التعليمية بالوطن الغريسي الراشدي نظام داخلي ألزم الطلبة بالخضوع له، كون أن التعليم في زوايا القرآن يهتم بالتربية أكثر فلا يتهاون في السلوك والأخلاق، فهما قاعدتان أساسيتان في تعليم زوايا القرآن. فالتربية الدينية تأتي في الدرجة الأولى ثم التربية الاجتماعية والسياسية بمفهومها الإسلامي الواسع[70]، حيث كانت هناك عقوبات مالية للكبار وعقوبات بدنية للصغار، وعقوبة الطرد من الزاوية ويسمى "النفي" وهو لمرتكبي الكبائر من السرقة، القمار، أما العقوبات المالية فكانت مخصّصة لبعض التجاوزات، كسبّ الدين وشتم الغير والغياب عن صلاة الجماعة، والغياب عن اجتماع الطلبة والغيبة، والكذب وغيرها من التجاوزات التي دخلت في إطار المنظومة التعليمية للزوايا بمدينة معسكر[71].

وعلى العموم، كانت الزوايا بمعسكر تابعة للطرق الدينية الصوفية، إذ كان يرأس الزاوية الشيخ وكان عددها في البايلك الغربي عموما أكثر انتشارا من المناطق الأخرى، وذلك يعود إلى استمرار الجهاد والرباط، إضافة إلى القرب من المغرب الأقصى مقرّ الزوايا والمرابطين[72]. كما شكلت الزوايا بمعسكر مقرّ عبادة ودراسة كتدريس علوم الدين والفقه ومبادئ القراءة والكتابة، إضافة إلى كونها ملجأ يلجأ إليه الهاربون من العقاب والقتل مهما كانت جرائمهم، فقد كان محي الدين مقدّم الطريقة القادرية- زاوية القيطنة- يصف زاويته بأنها كمقام إبراهيم من دخله كان آمنا[73]. ضف إلى ذلك زاوية أبي راس الناصر التي اعتمدت على الطريقة القادرية، القائمة على أساس نشر العلم والفقه والدعوة الدينية المتّسمة بالتساهل والتسامح مع الأديان الأخرى[74]. ولعل كل ذلك قد أثّر على مفكري وعلماء الراشدية، بدليل كتاباتهم التي امتزجت بطابع تصوّف ذلك العصر[75].

وهناك دعامة أخرى إلى جانب المؤسسات الثقافية والمعاهد العلمية السابقة (المساجد والزوايا)، تعرف بالمدارس التي هي من أهم قلاع العلم والمعرفة، التي لا يمكن لطلبة العلم الاستغناء عنها كونها كانت دعما أساسيا للمساجد والزوايا، التي استطاعت بفضلها أداء رسالتها التثقيفية والتعليمية على أكمل وجه بمدينة معسكر.

ج- المدارس:

لقد كان التعليم خلال العهد العثماني بالإيالة الجزائرية عموما والبايلك الغربي خصوصا يرتكز على مستويين، فحواهما ما يسمى بالمستوى الأول وهو ما يعادل الابتدائي، حيث كان يتمّ تلقينه عبر المدارس الصغيرة المعروفة بالكتاتيب[76]، أما المستوى الثاني فهو ما كان على مستوى مدن الإيالة بما فيها مدينة معسكر، والذي اتسم فيه التعليم بطابع ديني وبمستوى ثانوي- عالي[77] غلبت عليه الحركة الدينية المنحصرة في الزوايا باعتبار أن التعليم في المدارس لم يكن يختلف عن التعليم بالزوايا[78].

ومن الملاحظ، هو كون بعض الباحثين والمؤرخين يدخلون الزوايا والمساجد في عداد المدارس والبعض الآخر على عكس ذلك[79]. إذ لاحظ أحد علماء الراشدية ألا وهو أبو راس الناصر الذي زار مدينة الجزائر سنة 1214هـ/ 1799م بوجود المدرسة القشاشية[80]، حيث أشاد بها على أساس أنّها مركز للتعليم الثانوي والعالي بدليل قوله:"تبنى لدراسة العلم أي تعليمه وتعلّمه"[81]. وبالتالي يتّضح أنّ أبي راس الناصر قد عرّف المدارس في تلك الفترة بأنّها ليست المدرسة الزاوية أو المدرسة- المسجد، بل هي المدرسة المتخصّصة للتعليم وحده أي دراسة العلم في مستواه الثانوي والعالي[82].

وفي هذا السّياق ذكر أبو راس الناصر بأنه كان في مدينة الجزائر على عهده مدارس كبيرة، وقد مثّل لها بالمدرسة القشاشية كما كانت المدرسة المحمّدية في معسكر. إذ عند وصوله إلى وهران يذكر أبو راس الناصر حديثا عن المدارس بقوله: "إنّ المدارس بالمعنى الذي قصده قد درسها الكفرة (أي الإسبان) وكفوا رسمها"[83]، وبالتالي لم يبق في رأيه بوهران لدراسة العلم سوى المساجد، باعتبارها قبلة للمثقفين من جهة ومنارة إشعاع علمي للطلبة والعلماء من جهة أخرى.

وزيادة على هذا، فلقد كانت العلوم والمعارف التي درّست بهاته المدارس كثيرة ومتنوعة حيث كانت وظيفة المدرسة تحفيظ القرآن الكريم وشرحه، إلى جانب تفسير الحديث وتعليم الفقه والتوحيد والمنطق والأصول، وبعض علوم اللغة والأدب كالنحو

والصرف والبلاغة والعروض والقوافي وقواعد الإنشاء بغاية تعليم مبادئ القراءة والكتابة[84]. ضف إلى ذلك بعض العلوم التجريبية والطبيعية، كالفلك والحساب والصيدلة الشعبية وغيرها من العلوم الدقيقة[85]. إلاّ أنها كانت قليلة بسبب اشتغال العلماء بالعلوم الآنفة الذكر، لما تميزت به مدينة معسكر من طغيان العلم الديني على العلم الطبيعي التجريبي بمؤسساتها الثقافية[86] لا سيما مدارسها والتي من بينها:

ج1- المدرسة المحمّدية: تنسب تسميتها إلى مؤسّسها الباي محمد بن عثمان الكبير[87] الذي بناها إلى جانب الجامع الأعظم، حيث ألحق هذا الباي بالجامع الأعظم بمعسكر مدرسة عليا تسمى المدرسة المحمّدية نسبة إليه، وتبرّكا باسم النبيّ محمد صلّى الله عليه وسلم، أو مدرسة "الحايطة" كما وردت على اللوحة التذكارية للجامع الأعظم[88].

لقد اعتبرت المدرسة المحمّدية من أهمّ المدارس التي أسّسها هذا الباي بالغرب الجزائري، لما كان لها من صدى واسع في العالم العربي والإسلامي. حيث اعتبرت أكبر معهد علمي يضم أساتذة أكفّاء متفرّغين لمهمّة التعليم لا غير، إلى جانب الآلاف من الطلبة والتلاميذ الذين سارعوا إلى الإقبال على العلم بلهف شديد[89]. إذ تمكّن محمد الكبير بفضل تلك المدرسة من أن يجعل من مدينة معسكر عاصمة علمية كبيرة، بدليل ما قاله أبو راس الناصر بشأنها: "إنّ المدرسة المتعارفة عندنا، هي التي تبنى لدراسة العلم... كالمدرسة البوعنانية بفاس... والمدرسة المستنصرية والبياشية بتونس والقشاشية في الجزائر"[90] وهي التي أشار إليها أيضا ابن سحنون الراشدي بقوله: "...وهي المدرسة التي كاد العلم أن ينفجر من جوانبها..."[91].

ويبدوا أنه بالرغم من اهتمام الباي بالجامع الأعظم الذي بناه بمعسكر، فإنّه قد أسس المدرسة المحمّدية بجانبه. وذلك تماشيا مع التقاليد الإسلامية كما هو الحال بالنسبة للجامع الأزهر في مصر، وجامع القرويين في المغرب وجامع الزيتونة في تونس، باعتبار أنّ فكرة المدرسة المستقلّة عن الجامع، لم تكن تدور في خيال الباي محمد الكبير[92].

أما عن المواد والعلوم التي كانت تدرس في هذه المدرسة، فهي لا تقلّ عن المواد التي كانت تدرّس بأشهر المدارس الإسلامية، حيث طغى عليها الجانب الديني واللغوي وبعض كتب التاريخ والسيرة. وقد يعود ذلك إلى تفكير العلماء الذي كان منصبّا بالدرجة الأولى على الفقه والتفسير والحديث والشعر[93]. إذ تخصّصت مدرسة المحمّدية في تدريس الفقه المالكي وعلم التوحيد، إلى جانب علوم اللغة العربية. فمن كتب الفقه نجد حواشي شرح الشيخين الزّرقاني والخرشي[94]، وحاشية الشيخ مصطفى الرماصي[95]. إلى جانب كتب النحو مثل: شرح الشيخ المكودي، وفي اللغة كتاب القاموس للشيخ الفيروز آبادي ومقامات الحريري، وفي الأصول شرح الشيخ المحلي. بالإضافة إلى كتب أخرى في التصوف والمنطق وعلم البيان، وغيرها من العلوم النقلية والعقلية الأخرى[96].

ويمكن الإشارة إلى الحقيقة التالية: هي أنّ العناية بالعلوم الشرعية والعلوم المساعدة لها كاللغة والنحو والبيان وغيرها، ظلّت الشّغل الشاغل للمدرسة المحمّدية. حيث أدّى التركيز عليها إلى عدم العناية بالعلوم الأخرى، وهذا القصور لا ينطبق على مؤسسات العلم والثقافة بمدينة معسكر، بل هي حال الإيالة الجزائرية عموما، وهو ما أدى إلى انحطاط وضعية العلوم العقلية به خلال العهد المدروس، وليس أدلّ على ذلك من قلّة المشتغلين بالطب والكيمياء، الفلك، الحساب، الجبر، وغيرها من العلوم الطبيعية والتجريبية[97].

وذلك ما لاحظه الرحالة الإنجليزي شو (Shaw)[98]، الذي زار العديد من الأقطار الإسلامية في القرن الثامن عشر (18م)، وقال عن وضعية العلوم العقلية في الجزائر بأنّ أيّ علم لم يُأخذ بدرجة من الكمال. مؤكّدا على أنّ هذه الوضعية ليس ناجمة عن قلّة الأشخاص الذين يمارسون الطّب، أو أيّ من المهن التي تتطلب بعض المعرفة بالعلوم الدقيقة، إلاّ أنّ كل ما يفعلونه هو من قبيل العادة والتعوّد معتمدين في ذلك على ذاكرتهم القوية وذكائهم الفذّ[99].

والجدير بالذكر، أنّ بعض المدرّسين بالمدرسة المحمّدية قد تطرّقوا في مجالسهم لبعض العلوم العقلية كالحساب والفرائض والفلك، ولكن دراستها لم تكن إلاّ للاستفادة منها

في الحياة اليومية البسيطة[100]. فالحساب كان للاعتماد عليه في التجارة والفرائض وتقسيم التركات وغيرها، وكان الفلك يدرس لمعرفة الزّوال وأوقات الصلاة، وبالتالي فعدم اهتمام علماء معسكر بهذه العلوم هو الذي جعل الكتّاب الأوروبيين ينتقدون التعليم في الإيالة الجزائرية عموما، ومما لاشك فيه أنّ انتقادهم فيه شيء من الحقيقة[101].

وزيادة على هذا، فلقد ذكر المصطفى بن عبد الله بن زرفة الدحاوي صاحب الرحلة القمرية بشأن المدرسة المحمّدية حديثا، مفاده أنّها كانت عبارة عن حلم بين الخواص والعوام، نظرا للانحطاط الحضاري الذي بلغته الجزائر العثمانية. حيث عزم الباي محمد الكبير على تشييدها فأنفق عليها المال الجزيل، واستجلب لها المياه وأوقف لها الأوقاف[102]، وجهّزها بكل الوسائل التعليمية والتثقيفية من مكتبة إلى قاعات مطالعة وغرف لمبيت الطلبة[103]. كما عيّن لها الموظفين واصطفى لها أحسن المدرّسين في إطار شمل الهيئة المشرفة على التأطير، حيث عيّن أساتذة من الطراز الكبير من أمثال: محمد بن عبد الله الجيلالي الذي ولاّه إدارتها، ومحمد المصطفى بن زرفة الدحاوي، والطاهر بن حوا[104].

ومن الملاحظ أنّه كان محور المدرسة المحمّدية تدريس العلوم الإسلامية وتخريج الأئمة وموظفي البايلك والقضاة والمفتيين، حيث احتوت المدرسة على مكتبة كبيرة أنفق عليها الباي محمد الكبير أموالا طائلة لجمع واستنساخ المخطوطات النادرة، وضعها تحت وصاية الحبوس لخدمة الطلاب وأئمّة المسجد والمدرّسين الملحقين بالمدرسة[105]. وحتى لا نغفل عن دور شيوخها وطلابها في حرب وهران سنة 1792م، فقد كان مديرها محمد بن عبد الله الجيلالي رئيسا لرباط إيفري، والطاهر بن حوا نائبه، وابن زرفة الدحاوي مقيّد حوادث الفتح. إلى جانب اعتبار طلاّب المدرسة المحمّدية من بين الأوائل المستجيبين للمرابطة حول وهران، وتشكيلهم للوفد الذي إمتهن مهمّة دعوة الطلبة إليها من أنحاء البايلك الغربي[106].

وما يمكن الإشارة إليه أيضا، هو أنّ الطلبة كانوا يبادلون شعور أساتذتهم فيقدّرونهم ويحترمونهم، لِما يحملونه من علم واعترافا بما لهم من فضل، فيما بذلوه من جهود جليلة

من أجلهم. ويظهر ذلك جليّا فيما كتبه العلماء من مذكّرات عن مشايخهم الدالة على ما كان عليه مدرّسي المدرسة المحمّدية في ذلك العصر، من عفّة وتواضع وسماحة وعلاقاتهم بطلبتهم، في محاولة منهم لتزويد الطلبة بما ينفعهم من علوم دينية ودنيوية[107]. ولعل أحسن دليل على ذلك هو أبو راس الناصر المعسكري الذي تولّى مهمّة التدريس بهذه المدرسة، حيث التفّ حوله عدد هائل من الطلبة من بينهم محمد بن علي السنوسي[108]، الذي أورد حديثا أثناء ذكره لأساتذته الذين تتلمذ على أيديهم بقوله:"... ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا الهمّام والحافظ، الإمام سيدي محمد أبو راس المعسكري البلد الناصري، المحتد رحمه الله، كنت أتردّد إليه كثيرا، وأستفيد منه استفادة عظيمة لتمام حفظه وإتقانه لكل فن حافظا لمذاهب الأئمة الأربعة جواب، كلّ ما سئل عنه بين شفتيه وغالب من أخذنا عنه من أهل ناحيته أخذ عنه"[109].

كما تتضح علاقة الأساتذة المتينة في المدرسة المحمّدية بتلامذتهم والمبنية على الاحترام المتبادل، في كون أنّ هؤلاء العلماء كانوا يتفانون في خدمة تلامذتهم، فيسدّون إليهم بنصائحهم وتوجيهاتهم بهدف خدمة العلم والثقافة. حيث لا تكاد مؤلفات تلك الفترة تخلوا من ذكر لخصائلهم ومكانتهم العلمية والأدبية بين تلاميذهم[110]، فمثلا ها هو ابن سحنون الراشدي يعطينا صورة واضحة عن ذلك، من خلال المكانة التي كان يحظى بها أستاذه العالم محمد بن عبد الله الجيلالي، الذي عيّن مديرا على المدرسة المحمّدية بقوله: "....هو شيخنا الشجّاع المعظم المفضّل كاشف الغوامض بذهنه... النّقادة النّحرير، الشاهدة له دروسه بالتّحقيق والتّحرير، ذو الفضائل الوافرة والمحاسن التي لم تزل في الناس على كثرتهم ابن محمد... المشهور بأبي جلال... نشأ رضي الله عنه بين علم وأدب يقتبسه، وأدب يلتمسه... وهو الآن كهف إليه الملاذ وجبل به المعاذ...، لاّ وأنّه من أكبر شيوخنا الذين انتجعنا رياض دروسهم وانتفعنا كلّ النّفع..."[111].

وفي سياق وصف الأديب أحمد بن محمد بن علاّل المشهور بالقرّومي للجامع الأعظم، جاء وصف للمدرسة المحمّدية قائلا بشأنها:

تَحْوِيهِ مَدْرَسَةٌ غَدَتْ آثَارُهَا تُحْيِيهِ بِالعِلْمِ الشَرِيفِ الأَشْعَرِي
تَمْحِي رُسُومَ الجَهْلِ مِنْ أَلْوَاحِهِ تَمْحِي شَمَائِلَهُ مِنَ الزُورِ السَرِي
مَبْنَى الأَمِيرِ مُحَمَدٌ فِي الغَرْبِ قَدْلاَحَتْ رُسُومَهُ كَالصَبَاحِ المسْفِرِ[112]

وهكذا يتبيّن أنّ المدرسة المحمّدية هي من المعاهد العليا التي عرفتها الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني، مثلها مثل المدرسة الكتّانية التي أنشأها صالح باي في قسنطينة والمدرسة القشاشية في الجزائر العاصمة[113]، غير أنّ سمعتها ومكانتها العلمية فاقت المدرستين الأخيرتين، لأهميّتها الوظيفية في تلبية حاجيات السلطة العثمانية من الإطارات والكفاءات العلمية المتخصّصة[114].

ولا شكّ أنّ مدرسة المحمّدية بمدينة معسكر، قد فقدت أهميّتها و لم يبزغ نجمها في التاريخ مع انتقال عاصمة البايلك الغربي من معسكر إلى وهران سنة 1792م، وهجرة مدرّسيها وفقدان الاهتمام بالمدرسة أيضا. وبالتالي لم تتوفر معلومات عن مصير هاته المدرسة وتاريخ غلقها، كما لم يُحصى عدد العلماء المتخرّجين من هاته المدرسة، أو حتى المشاهير منهم، ممّا يوحي بأنّها كانت عبارة عن مؤسسة ثانوية ملحقة بالجامع الكبير (الأعظم) لا غير[115].

ج2- مدرسة القيطنة:

تعتبر مدرسة القيطنة من أهم المؤسسات التعليمية في الجزائر خلال الفترة العثمانية، إذ تأسّست هذه المدرسة بمنطقة القيطنة[116] بالقرب من بوحنيفية حوالي سنة 1200هـ/ 1787م، على يد مصطفى بن المختار[117] جد الأمير عبد القادر. وإذا كان قد ذكر في كتاب تحفة الزائر أنّ تأسيس المدرسة يعود إلى سنة 1206هـ/1792م، أي في بداية القرن الثالث عشر الهجري (13هـ)، فإن الأمير عبد القادر يذكر في مذكراته التي كتبها في قصر أمبواز أنّ معهد القيطنة أسّس في أواخر القرن الثاني عشر الهجري (18م).

بدليل أن سنة 1206هـ هي تاريخ تجديد المعهد وليس تاريخ بناءه، لأنّ الباي محمد بن عثمان الكبير الذي كان أحد تلامذة الشيخ مصطفى بن المختار اشتهر في تلك الفترة بتجديد وبناء المساجد لا غير[118]، وبعد وفاة المصطفى بن المختار في عين الغزال بليبيا تَسلّم أمور إدارتها الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر[119].

لقد تطوّرت المدرسة تطوّرا كبيرا وأصبحت تلقّب بمعهد القيطنة نظرا لتوافد الطلبة والعلماء عليها. وزيادة على هذا فلقد كان من العلماء الذين درّسوا بها عبد القادر المشرفي، الذي كان يعدّ من كبار علماء عصره لدرجة أنّه عُيّن مديرا بهذا المعهد العلمي[120]. ضف إلى ذلك أبو راس الناصر الذي إمتهن التدريس بهذا المعهد الديني الكبير، بدليل قوله: "فذهبت للقيطنة وقد اجتمعت بجموع من الطلبة"[121]. وغيرهم من الطلبة الذين تخرجوا من هذا المعهد وصاروا علماء كبار، حيث ذاع صيتهم في الجزائر والمشرق العربي، وهذا ممّا يدلّ على علوّ همّتها وذكرها في الآفاق.

وممّا يذكر أنّه لا جدال في أنّ مدرسة القيطنة كانت مدرسة معترفا بها من قبل علماء الراشدية أوّلا، ثمّ من علماء الأمصار ثانيا[122]. فها هو المؤرخ أبو راس الناصر المعسكري الذي زار المعهد في عهد مؤسّسه مصطفى بن المختار يقول عنها: "وقد ذهبت للقيطنة ذات يوم ووقفت بباب الجامع، فإذا هو نوالة كبيرة بمحرابها- النوالة تطلق إلى الآن على الكوخ- وعن يمينه بيت الشيخ المشرفي، فرأيت مصطفى بن مختار أحد تلامذة الشيخ المذكور يدرس في الأوّل من المختصر –خليل-، ثم رجعت في ساعة فرأيت الشيخ يدرس الثاني، و لم يُبال بي أحد من الطلبة كأنّي نسيًا منسيًا"[123].

وزيادة على هذا، فلقد كانت مدرسة القيطنة من المدارس التعليمية الهامة في الإيالة الجزائرية، حيث جمعت بين كل مراحل التعليم من أدنى مرحلة إلى أعلاها، كما كان بها ستّ حلقات تعقد لجلسات العلم بمعيّة عدّة أساتذة. كما كانت تضمّ عددا كبيرا من الطلاب تراوح عددهم ما بين 700و 1800 طالب علم دائمي الدراسة، مما يوحي بأن عدد الطلاب الملتفين حول علماء هذه المدرسة كان هائلا في تلك الفترة[124].

أما عن أهم العلوم التي كانت تدرّس في هذه المدرسة ففي غالبيتها علوم شرعية وعقائدية، إذ تخصّصت مدرسة القيطنة في تدريس الفقه المالكي وعلم التّوحيد، إلى جانب الحديث وعلوم اللغة العربية من نحو وبيان، إذ أنّ كلّ شيخ من شيوخها تخصّص في باب من أبوابه[125]، إلى جانب ذلك اهتم المدرّسون بها بتدريس المذاهب الصوفية، باعتبار أن مؤسّس هذه المدرسة كان من المتصوفة من جهة[126]. ولكون مواد التدريس بها قد انحصرت في رواية الحواشي والشروح والمختصرات التي وضعت على المصادر، كمختصر الشيخ خليل[127] في الفقه المالكي وألفية ابن مالك[128] في النّحو، وصحيح البخاري في الحديث والعقيدة الصغرى في أصول الدين، ومجموعة من كتب التوحيد للشيخ السنوسي وكتب الحكم العطائية، وحواشي الشيخ الدردير وكتب الأئمة السّتة المعتمدة، ولعل هذا ما يوضح طغيان الطابع العقائدي على العلوم الدينية الأخرى بهاته المدرسة[129].

ويبدوا أنّ مناهج التدريس وطرقه بهاته المدرسة قد كانت جدّ متميّزة، لما عُرفت به من إشعاع ثقافي ساعد على تخريج العديد من الطلبة، بوجود شيوخ ومدرّسون خاصّون. حيث أنّه في الغالب كانت مدرسة القيطنة تقوم بتدريس العلوم العقائدية، ومجموعة من العلوم الدينية كالتفسير والحديث والقراءات واللغة، وكانت هذه المناهج أغلبها مستمدة من مصادر الفترة الإسلامية السابقة، إذ كان التعليم بها يعتمد على إلقاء الدّرس على الطلبة في المدرسة في فن من فنون العلم، وكان في العادة أن يكون لكلّ مُدرس مُعيد يُعيد على الطلبة ويراجع لهم ما تلقّوه من المدرّس ويشرح لهم ما أشكل عنهم. وقد كان للطلبة الحريّة في اختيار أيّ مدرّس شاءوا، ويكون هذا الاختيار في الغالب مبني على شهرة المدرّس بمعهد القيطنة. ولعل أحسن دليل على ذلك إشراف أبو راس الناصر المعسكري على مجموعة هائلة من الطلبة بها، بلغ عددهم في غالب الأحيان 780 طالب[130].

أما بالنسبة لنظام الامتحانات فلم يكن معروفا بمدرسة القيطنة خلال العهد المدروس، وإنّما كان الشائع- حسب العيد مسعود- تكليف الشيخ أو المدرّس للطالب الذي أخذ بسهم وافر من العلوم، بمساعدة الطلبة على تكوين فكرة عن الدّرس الجديد قبل أن

يشرحه، وبإعادة الدّرس الذي سبق أن ألقاه. فيرفع من جهة مستوى بعض العناصر الضعيفة، ويتمرّس من جهة أخرى على إلقاء الدروس. على أنّه حين يختم الدّرس يمنحه أستاذه إجازة خاصة لتدريس علم معين أو عدد من العلوم، أو إجازة عامة لتدريس كافّة العلوم، وهو ما حدث مع مدير معهد القيطنة الشيخ عبد القادر المشرفي[131].

وإذا كانت الإجازة عبارة عن "شهادة كفاءة" أو تأهيل يستحق بها المجاز لقب الشيخ أو الأستاذ في العلوم المجاز بها[132]، فإنّ المصادر التي اعتمد عليها الباحث لا تشير إلى منح علماء معسكر الإجازة بالتدريس المتعارف عليها، وكل ما وجده إذن بعض العلماء المدرِّسين لأبنائهم أو للمقرّبين من تلامذتهم في مباشرة التدريس بمعهد القيطنة على سبيل النيابة، مثل تولي الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر أمور إدارة معهد القيطنة والتدريس به بعد وفاة مؤسِّس المعهد مصطفى بن المختار سنة 1798م، إلى جانب تعيين عبد القادر المشرفي مدرّسا بالمعهد، وذلك لمعرفتهم العميقة بالعلوم اللغوية والأدبية والفقهية، حيث أهّلتهم ثقافتهم الواسعة ومطالعتهم المتبحّرة واتصالهم بالعلماء وحرصهم على حفظ العلوم، وكذلك حافظتهم القوية من استقطاب الفنون والعلوم المختلفة، بل وحتّى العلماء من شتّى الأمصار ومن تولّي أمور إدارة معهد القيطنة[133].

ومما تجدر الإشارة إليه، هو أنّه رغم تخصيص أبو القاسم سعد الله فصلا كاملا للتعليم بالجزائر العثمانية، إلا أنّه لم يتوسع في نهاية الدروس مفضِّلا تناولها تحت إطار انتهاء "علاقة الطالب بأستاذه". وبعد أن استعرض الاعتبارات التي تنهي العلاقة بينهما، خلص إلى القول بأنّ: "هذا النوع من التعليم لا ينتهي بشهادة أو نحوها، وأقصى ما يطمح إليه الطالب المجتهد والطموح هو حصوله على إجازة شفوية من أستاذه، وهي تسريحه ورضاه عنه"[134]. إلاّ أنّه قال بعد إشارته إلى تساهل بعض العلماء في منح الإجازة: "ومهما كان الأمر فإنّ الشهادة أو الإجازة، هي آخر علاقة بين الطالب والمدرّس"[135].

وبناءا على هذه الأقوال، يمكن أن نميّز بين عدّة حالات لنهاية الدروس بمعهد القيطنة، حيث يمكن أن تنتهي علاقة الطالب بأستاذه بدون أن يتلقّى إجازة منه. كما يمكن أن

يحصل على إجازة شفوية وهي تصريحه ورضاه عنه، والحالة الأخيرة هي تحرير الأستاذ إجازة علمية للطالب، وهي الحالة التي امتازت بالقِلّة بمدينة معسكر، ولعل هذا ما ذكره **محمد سي يوسف** بقوله: "ولعلّ ما يفسر قلّة الإجازات العلمية المتبادلة بين العلماء الجزائريين، هو عدم بلوغ التعليم من المستوى العالي بها مستوى التعليم في بعض الأقطار الإسلامية، بالإضافة إلى قلّة الطلبة الذين يواصلون دراستهم إلى غاية نهاية الدروس ونيل الإجازة، لانشغال أغلبهم بطلب الرزق عن طلب العلم"[136].

ومما تجدر الإشارة إليه، هو أنّ مدينة معسكر قد عرفت مجموعة أخرى من المدارس التي كانت في الوقت نفسه زوايا تقوم بالدراسة والتعليم نذكر منها:

مدرسة زاوية سيدي علي شريف بسيق، وزاوية محمد بن قالة الحسني بالكرط، مدرسة زاوية مصطفى بن الطيب بعقاز، مدرسة زاوية سيدي علي بلحجاج ببني شقران، مدرسة زاوية سيدي قادة، ومدرسة زاوية أبي راس الناصر بمعسكر[137]. وغيرها من الزوايا التي كان لها الفضل الكبير في إعطاء المعلومات، وتزويد الطلبة بالأفكار والفتاوى والآراء الفقهية. بالإضافة إلى تأثيرها الكبير على شخصية علماء الراشدية، بل وحتى في تكوينهم العلمي والمعرفي.

خاتمة:

من خلال ما سبق يمكن التأكيد على أنّ من أهمّ المقاييس والمعايير التي تساعد الباحث في الحكم على تطور الثقافة وانتشارها في مدينة معسكر، أو الجمود الفكري والركود الثقافي بها خلال العهد المدروس، هي تلك المكتبات الموجودة بالوطن الغريسي الراشدي، باعتبارها قبلة للمثقفين والعلماء والمتمدرسين والطلبة من جهة، ومنارة إشعاع علمي وفكري ثقافي من جهة أخرى. كما احتضنت هذه المنشآت عدد كبير من العلماء والطلبة، الذين ساهموا في تنشيط الحركة العلمية والثقافية لمدينة معسكر، خاصة خلال حكم الباي محمد الكبير، هذا الأخير الذي عُرف بمساهماته في تشجيع الحركة العلمية في

المدينة من خلال ترميم وتجديد المؤسسات التي تعرضت للإهمـــال والتلـــف، وإعـــادة الأوقاف التي سلبت منها.

الهوامش:

1-تقع مدينة معسكر في الإقليم الشمالي الغربي للجزائر، على أحد السّفوح الجنوبية المطلة على سهل غـــريس بالقسم الغربي لجبال بني شقران، فوق أرض كلسية بيضاء تعود إلى الزمن الثالث وبالخصوص إلى عصر البليستوسين. وهي تحتل كل من هضبة سان هيبوليت – المامونية حاليا– وسهل غريس المنخفض والذي يمتد جنوبا حتى الأقســـام الجوراسية لجبال سعيدة، والتي هي جزء من الأطلس، التلي يحدد موقع معسكر الفلكي بخط عرض 35,25° شمـــالا وخط طول =02,15° غربا بِعُلُوٍ عن سطح البحر يقدر بـــ: 585م. لقد سميت هاته المدينة فيما سبق وبالخصوص في العهد الروماني بـــ: كاسترانوفا (Castranova) أي المعسكر الجديد. ذلك بعد أن اختيرت معسكر ضـــمن خطوط الدفاع الرومانية المسماة بـــ: الليمسات إذ سميت معسكر حينها أيضا بمطمورة رُومَا. في حين يرى بعـــض المؤّرخين أمثال شو (Shaw) وسانسون (Sanson) أن اسم معسكر الأصلي هـــو فيكتوريـــا (Victoria)، بحكم أن معسكر تقع إلى الجنوب الشرقي من وهران على 13,5 مرحلة فقط. عدة بن داهة، معسكر عبر التـــاريخ، دار الخلدونية، الجزائر، 2005، ص: 08.- للمزيد أنظر:

Pierre Larousse: Grand Dictionnaire Universel du 19ème siècle. T: 10.L.M;1873; p :1296.

2- نسبة إلى جبل راشد مقر قبيلة زناتة والبربر قبل الإسلام وبعده، تعود أصول بنو راشد إلى أولاد أحمد بن راشد بن يحيى بن علي بن حمودة الاثنا عشر. ويذكر أن راشد أبا أحمد انتقل إلى هوارة وتـــزوج منـــهم بامرأة، فأصبحت تسمى المنطقة بقلعة بني راشد أو الراشدية، والتي أصبحت حدودها فيما بعد تمتد من منطقة كرسوط غربا إلى جبل المناور شرقا ومن البنيان جنوبا إلى منطقة القلعة شمالا. والآن تطلق على معسكر ومـــا حولها. أبو عبد القادر عابدين بن حنفية، أبي راس الناصري: حياته وتصوفه من كتابه الحاوي، مكتبة الرشـــاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص: 26.- للمزيد عن الراشدية أنظر: ابن خلدون: تاريخ ابـــن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكـــبر، ج6، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص: 535.-الهاشمي بن بكار، مجموع الحسب والنسب والفضائل والتاريخ والأدب، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، ص:33.

3-صالح فركوس، "الباي محمد الكبير وبعث الحركة الثقافية ببايلك الغرب الجزائري"، الثقافة، العـــدد: 71، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، سبتمبر- أكتوبر، 1982، ص: 16.

4-المرجـــع نفســـه، ص: 16. للمزيـــد أنظـــر: Mémoires de thédenat, in: Revue Africaine. 1948, T :92 ; P,P: 181, 182.

5-أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم 1632، الورقة: 18.

6-عبد الحميد حاجيات، "الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان"، مجلة الأصالة، عدد خاص، جويلية- أوت 1975، ص، ص: 136-155.

7-ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر: العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 66.

8-الفرق بين المسجد والجامع: أن الأول تؤدى فيه الصلوات الخمس، أما الثاني فتقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وتنظم به حلقات العلم والمعرفة، وعادة ما يسمى الجامع بمسجد الخطبة. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 243.

9-المرجع نفسه، ص: 243.

10-المرجع نفسه، ص: .244

11-صالح فركوس، المرجع السابق، ص: 28- للمزيد أنظر: حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب: محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع، الجزائر، 1975، ص، ص: 318، .320

12-ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، ط1، مطبعة البعث، الجزائر، 1973، ص-ص: .127

13- المرجع نفسه، ص: .127

14- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص: 249.

15- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: .243

16- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: .128

17- جاكر لحسن، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة معسكر 1931- 1956، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص: .23

18- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص:.127

19-بلبروات بن عتو، الباي محمد الكبير ومشروعه الحضاري (1779م-1797م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، 2001-2002، ص: .215

20- جاكر لحسن، المرجع السابق، ص:.24

21- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص:.128

22- المصدر نفسه، ص:.128

23- المصدر نفسه، ص:.127

24- جاكر لحسن، المرجع السابق، ص:.23

25- حمدادوبن عمر: أبوراس الناصر المعسكري وكتاباته التاريخية 1155، 1238ه/ 1737-1823م، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2002-2003، ص:.8

26- بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص:216.

27- المرجع نفسه، ص:216.

28- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص:.128

29- المصدر نفسه، ص:133.

30- صالح فركوس، المرجع السابق، ص:17.

31- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: .128

32- المصدر نفسه، ص: .128

33- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: .260

34- الآغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج1، تحقيق: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص: .295

35- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص، ص: 127، 128.

36- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص: .252

37- جاكر لحسن، المرجع السابق، ص: .23

38- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: .259

39- أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير "باي الغرب الجزائري" إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1969، ص: .28

40- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: .326

41- لقد بلغت مساحة بيت الصلاة بهذا المسجد، حوالي 283.50 م^{2}أما مساحته من الخارج فلقد بلغت حوالي 351م^2 كان له باب يؤدي إلى المدرسة، وعدد نوافذه عشرون نافذة تشبه نوافذ الحصون العسكرية، تتسع من الداخل بـ: 96 سم وتضيق من الخارج بـ: 55 سم. للمزيد أنظر: مبروك مهيرس، المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، دبلوم الدراسات المعمقة لعلم الآثار، جامعة الجزائر، 1982، ص، ص: 67، .84

42- Leclerc. Ch :inscriptions arabes de Mascara in: Revue Africaine. N°: 19, Année: 1859, P ;P: 44, 45.

43- مبروك مهيرس، "المساجد العثمانية في وهران ومعسكر"، عرض وتقديم: قويدر بشار، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، العدد: 01، 1986، ص: .154

44- البرج: قرية صغيرة أو بلدة صغيرة إن صح التعبير، تبعد عن مدينة معسكر بأربعة وعشرين كيلو مترا من الجهة الشمالية الشرقية، كانت مقرا لقائد تركي يدير شؤون المقاطعة الواقعة بين فليتة وغليزان، والظهرة ومجاهر وسيرات والمحمدية ومعسكر، وبني سنوس وفرندة وهوارة. ويرتبط بها مقام ثلاثة أضرحة لثلاثة

متصوفة هم: الشيخ عبد الرحيم، الشيخ ابن عامر، الشيخ عبد القادر، كانت البرج تعرف من قبل ببرج عياش ثم أصبحت تعرف فيما بعد ببرج المخفي نسبة إلى قدور بالمخفي الذي سكنها في عهد الأتراك أنظر:

Raoul: Notice historique sur El- Bordj depuis la dernière période de l'occupation turque jus qu'à nos jours. In: B.S.G.A.O ; T: XX ; 1900 ; Oran ; P,P: 145, 171.

45-الكرط: أو جبل الذهب كما كانت تسمى، وهي معسكر القديمة بها مقبرة شهيرة تضم عددا من العلماء والأولياء الصالحين بالإضافة إلى مسجدها المرمّم من قبل الباي محمد بن عثمان الكبير، بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: 217.

46- Raoul , op.cit , p: 171.

47- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص: 204.

48- المباني: ويقصد بها الزوايا، وهي عبارة عن مجموعة من الأبنية لتدريس الابتدائي وحفظ القرآن الكريم ولتسكين الطلبة بها. وفيها قسم نزول المسافرين، كما نجد فيها مسجد لإقامة الصلاة والوعظ والتدريس الثانوي والعالي. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 262.

49-الهاشمي بن بكار، المصدر السابق، ص: 35.

50- ذكر ابن مريم في ترجمته لمحمد بن يحيى بن موسى المغراوي الراشدي (القرن العاشر للهجرة (16م)) المتبحر في علم التوحيد، بأنه دخل رفقة زميل له من الراشدية إلى تلمسان وأخذ عن السنوسي، وهما اللذان أوصلا علم التوحيد إلى بني راشد. محمد بن محمد المديونيابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص: 275.

51- أحمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني (986هـ- 1041هـ/ 1579- 1631م) قرأ على علماء تلمسان والمغرب، ترك عدة مؤلفات في علوم مختلفة أشهرها: نفح الطيب وفتح المتعال وأزهار الرياض وإضاءة الدجنة. محمد أمين المحبي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ج1، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، ص، ص: 302، 311.

52- ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص، ص: 170، 171.

53- يحيى بوعزيز، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص: 131.

54- الدومة: معناها نبات الدوم، وهو شجر المقل وهو نبات كثيف تصنع منه القفف، الكراسي والمكانس. وهو من النباتات المعروفة عند أهالي المنطقة موزع على كامل أنحاء المدينة، ولذا عبّر عنها بكثرة العلماء. أنظر: حمدادو بن عمر، المرجع السابق، ص: 03.

55- غريس: سهل من سهول معسكر، ويسمى غريس لأنه كان مغروسا بأنواع الأشجار ذوات الأثمار. المرجع نفسه، ص، ص: 07، 33.

56-الهاشمي بن بكار، المصدر السابق، ص: 34.

57- الزاوية الراشدية: نسبة إلى الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الراشدي، الملقب بجمال الدين التجيني، كان من أعيان مشايخ المغرب وعلمائها العارفين لعلم الشريعة الإسلامية، انتهت إليه رئاسة تربية المريدين ببلاد الراشدية- معسكر- فاجتمع عنده جماعة كبيرة من كبار المشايخ والصالحين توفي سنة 927هـ- 1520م. أخباره ومناقبه كثيرة استوفى بعضها الشيخ الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن علي الصباغ القلعي في تأليف سمّاه: "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأزهار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار". مجموعة أساتذة: "الحياة الروحية في الإسلام: معسكر رجال وتاريخ"، في أعمال ملتقى الفكر الإسلامي الواحد والعشرين ج1، معسكر، وزارة الشؤون الدينية خلال: 26 أوت- 01سبتمبر 1987، ص: 49.

58- العيد مسعود، "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة سيرتا، العدد: 03، رجب 1400ه-، ماي 1980، ص: 63.

59- يحي بوعزيز، موضوعات وقضايا....، ج1، المرجع السابق، ص: 132.

60- مجموعة أساتذة، "الحياة الروحية في الإسلام: معسكر رجال وتاريخ...، المرجع السابق، ص: 63.

61- ولعل هذا ما أكدّه لي الجيلالي جلول، عند حديثه عن الأولياء والصلحاء بالوطن الغريسي الراشدي ذو الكرامات الكبيرة. لقاء مع الأستاذ جيلالي جلول باحث في التراث الثقافي للراشدية- معسكر-، في رواية شفوية حدثنا بها يوم: 06 جانفي 2008.

62- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي....، ج2، المرجع السابق، ص: 262.

63- محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت، ص: 106.

64- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص: 231. 65- أبو حامد المشرفي، ياقوتة النسب الوهاجة وفي ضمنها التعريف بسيدي محمد مولى مجاجة، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 3326، الورقة: 11و.

66- لزغم فوزية، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 924- 1245هـ / 1518- 1830م، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2005- 2006، ص: 73.

67- رغم تقصينا المستمر والمتواصل عن أصل الزاوية الأول، إلا أنه لم تتوفر لدينا المعلومات الكافية عن ذلك فكل ما استطعنا التحصل عليه، هو معلومات خاصة بالفترة التي تلت وفاة الشيخ أبو راس الناصر. أما

عن تاريخ بناءها فيمكن حصره ما بين 1805 و1810م، أما عن موقعها فهي تقع وسط مدينة معسكر غرب ساحة الركابة بحي بابا علي. ضف إلى ذلك أن التخطيط بهذه الزاوية قد اتخذ شكلا هندسيا، يشغل مساحة متوسطة تقدر بـ: 200م^2 احتوت على المرافق الضرورية، التي نجدها في أي زاوية منها الصحن، بيت الصلاة، بيت الشيخ، الضريح أو تابوت أبو راس الناصر.

68- كانت دراسة أي علم بزوايا مدينة معسكر، لا سيما العلوم الدينية تقوم على قراءة الكتب المؤلفة فيه، كما في بقية مدن الإيالة الجزائرية وبقية البلدان الإسلامية. لقاء مع الشيخ مصطفاوي عبد الله: أحد أحفاد الشيخ الرماصي، في رواية شفوية حدثنا بها يوم: 17 جانفي 2008.

69- ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ...، المرجع السابق، ص: 202.

70- الشيخ مصطفى السنوسي، كتاب المقتبسات النيرة في ذكر دور الزوايا ورجالاتها العلمية عبر العصور والأيام، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص: 53.

71- لقاء مع الشيخ بحرية: إمام بمسجد أبي حنيفة النعمان أو الجامع الكبير الذي بناه الباي محمد الكبير بالبرج، في رواية شفوية حدثنا بها يوم: 02 جانفي 2008.

72- الواليش فتيحة، الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث جامعة الجزائر، 1993-1994، ص، ص: 267، 268.

73- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...ج1، المرجع السابق، ص: 271.

74- بوغرارة نعيمة، زاوية أبي راس الناصر بمعسكر: دراسة أثرية، مذكرة ليسانس في الدراسات الأثرية، جامعة الجزائر معهد الآثار، 1999- 2000، ص: 17.

75- مجموعة أساتذة، الحياة الروحية في الإسلام: معسكر رجال وتاريخ...، المرجع السابق، ص: 10.

76-الكتاتيب: أو الكتاب أو المكتب كما يسمى أحيانا، كانت مخصصة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة للأطفال، وغالبا ما كانت عبارة عن حجرة أو دكان أو جناح في مسجد معد للغرض المذكور. أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي...ج1، المرجع السابق، ص: 277.

77- لم يكن مصطلح التعليم الثانوي والعالي بل وحتى الابتدائي مستعملا في العهد العثماني، ومع ذلك فقد استعملها الدارسين للدلالة على هذا النوع من التعليم، كأبي القاسم سعد الله في كتابه: "تاريخ الجزائر الثقافي" والمهدي البوعبدلي في كتابه :"الجزائر في التاريخ"، والعيد مسعود في دراسته: "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني"- للمزيد أنظر: ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ...، المرجع السابق، ص: 203.

78- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي....، ج1، المرجع السابق، ص: 280.

79- المرجع نفسه، ص:.280

80- القشاشية: وهي المدرسة المنسوبة إلى جامع القشاش، الذي يعود إلى العهد السابق للعثمانيين. إذ وجدت أقدم وثيقة تتحدث عن هاته المدرسة تعود إلى سنة 1162هـ/ 1749م، مما يوحي على قدم هاته

المدرسة. لكن الأمر لم يدم طويلا، إذ حولها الفرنسيون بعد احتلالهم لها إلى مخازن للجيش سنة 1831م. أبو القاسم يعد الله، المرجع السابق، ص: 282.

81- أبو راس الناصر، عجائب الأسفار...، المصدر السابق، الورقة: 90.

82- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي.... ج1، المرجع السابق، ص: 281.

83- المرجع نفسه، ص: 281.

84- لزغم فوزية، المرجع السابق، ص: 32.

85- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص، ص: 104، 105.

86- ذلك أن العلوم الدقيقة لم تلق العناية الكافية، على الرغم من بعض المحاولات البسيطة من ذلك مثلا ذكر العناصر الكيميائية لصنع البارود وكيفية تركيبه وتأثيراته. وكذلك تفسير الحوادث الطبيعية تفسيرا علميا، ولكن دون تجريدها من الأساطير والخرافات الملتصقة بها، لمعرفة المواقيت الشرعية، وقد استعمل كذلك الحساب للاستعانة به على تفسير التركات. جاكر لحسن، المرجع السابق، ص، ص: 43، 44.

87- لقد سُميّت المدرسة بهذا الاسم، نسبة إلى محمد بن عثمان الكردي. أما لتسميته بالكبير فذلك راجع إلى المكانة التي حظي بها هذا الباي بين سكان البايلك الغربي، لاسيما بعد استرجاعه لوهران والمرسى الكبير سنة 1792م من الاحتلال الإسباني.

88- Leclerc. Ch: « Op Cit » ; P: 44..

89- صالح فركوس، المرجع السابق، ص: 17.

90- أبو راس الناصر، عجائب الأسفار....، المصدر السابق، الورقة: 90.

91- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: 127.

92- صالح فركوس، المرجع السابق، ص: 17.

93- جاكر لحسن، المرجع السابق، ص: 30.

94- وهما الحاشيتان اللتان اعتمد عليهما العديد من علماء الراشدية، لاسيما أبو راس الناصر وعبد القادر المشرفي والشيخ مصطفى الرماصي. إذ تمكّن الباحث من الحصول على نسخ من مخطوط الشيخ الخرشي والشيخ الزرقاني من مكتبة محمودي البشير، الواقعة ببلدية البرج ولاية معسكر، من بينها شرح الشيخ الخرشي في الصلاة على الشيخ خليل في عدة أبواب من النكاح والبيوع والصلاة، ضف إلى ذلك شرح عبد الباقي الزرقاني وغيرها من الشروح. لقاء مع أحد أحفاد المحمودي البشير: الابن: محمود الذي زوّدنا بمجموعة من المخطوطات يوم: 23 أوت 2007.

95- مصطفى الرماصي، شرح حاشية شمس الدين التتائي، ج1، مخطوط بخزانة الشيخ البشير محمودي، البرج – معسكر.

96- حمدادو بن عمر، المرجع السابق، ص: 43.

97- شاكر مصطفى، موسوعة دول العالم الإسلامي ورجاله. ج3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993، ص: 1653.

98- كان الدكتور شو (Shaw) كاهنا بالوكالة الإنجليزية في الجزائر من سنة 1720 إلى 1732م، واستطاع أن يقدم عملا بعنوان: "جولات في ولايات متعددة ببلاد البربر والشرق" ترجم إلى الفرنسية ونشر الجزء الخاص بالجزائر تحت عناوين مختلفة منها: " Voyage de Monsieur Shaw dans la régence d'Alger" و"الجزائر قبل قرن من الاحتلال الفرنسي". ينظر:عميراوي حميدة، الجزائر في أدبيات الرحالة والأسر، دار الهدى، الجزائر، 2003، ص: 09.

99-Shaw , L'Algérie un siècle avant l'occupation française. Traduit: par: J, Mac, Carthy ; Paris: Editions Imprimerie de Carthage, 1968, P: 48.

100- جاكر لحسن، المرجع السابق، ص، ص: 43، 44.

101- محمد بن جبور، صورة الجزائر والجزائريين من خلال الكتابات الفرنسية في القرنين: 17 و18م، رسالة ماجستير في تاريخ العلاقات الدولية، جامعة وهران، 2002- 2003، ص، ص: 132، 133.

102- أبو محمد المصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن زرفة، الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: 3322، الورقة 19 و.

103- صالح فركوس، المرجع السابق، ص: 17.

104- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي....، ج1، المرجع السابق، ص: 282.

105- حجاج ميلود، "الباي محمد بن عثمان محرر مدينة وهران"، مجلة المتحف الوطني، أحمد زبانة، وهران، ص: 31.

106- المهدي البوعبدلي، "الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى"، الأصالة، العدد: 13، 1973، ص: 27.

107- صالح فركوس، المرجع السابق، ص: 27.

108- الشيخ محمد السنوسي (1202هـ/ 1776م): هو أبو عبد الله محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسيني الإدريسي، مؤسس الطريقة السنوسية في مستغانم. نشأ في بيت علم ودين وفضل، فدرس علوما متنوعة من بين تآليفه: "الدرر السنية في أخبار السلالة السنوسية" (مطبوع) والمسائل العشر المسماة: "بغية المقاصد وخلاصة المراصد" (مطبوع). ينظر: يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة....ج1، المرجع السابق، ص: 233.

109- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص: 66.

110- ذلك أنه كانت نظرة المجتمع إليهم نظرة احترام وتقديس، حيث كان علماء معسكر يحظون بمنزلة عظيمة لدى المواطنين بالراشدية، فكان تأثيرهم في الطبقة العامة تأثيرا كبيرا، لدرجة أن بعضهم كان يقلّد أنماط

سلوك العلماء، وكل فرد منهم يجد أنه من الشرف له أن يستقبل واحدا من هؤلاء العلماء في بيتـــه. للمزيـــد أنظر: حمدادو بن عمر، المرجع السابق، ص: 44.

111- ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص، ص: 228، 229.

112- المصدر نفسه، ص، ص: 130، 132.

113- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي....ج1، "المرجع السابق"، ص، ص: 331، 332.

114- بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: 222، ينظر أيضا: جاكر لحسن، المرجع السابق، ص: 31.

115- وهذا بدليل الأوقاف التي كانت تنص على نفقة المدرسين بالجامع الكبير بمعسكر دون المدرسة المحمدية، وبالتالي يتضح أن المدرسة كانت ثانوية بالنسبة للجامع. أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائـــر الثقـــافي...ج1، المرجع السابق، ص، ص: 281، 282، وأيضا: بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص: 222.

116- القيطنة: هي قرية على بعد 28 كلم من مدينة معسكر مقر أسرة الأمير عبد القادر، اختطها جدّه المصطفى بن المختار سنة 1206هـــ/ 1792م. وفيها درس مجموعة من العلماء أمثال: عبد القادر المشـــرفي وأبو راس الناصر المعسكري وغيرهم من الطلبة المتخرجين من هذا المعهد، وهي اليوم بلديـــة تابعـــة لـــدائرة بوحنيفية. أنظر: حمدادو بن عمر، المرجع السابق، ص: 67.

117- مصطفى بن المختار: الغريسي جد الأمير عبد القادر، درس وتفقّه في غريس، أخذ الطريقة القادرية على الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي، فأسس قرية القيطنة وزاويته ومعهده بـــوادي الحمـــام ســـنة 1206هـــــ/ 1792م، ووظف في زاويته علماء أجلاء أمثال شيخه عبد القادر المشرفي. كما كان من بـــين تلامذتـــه ومريـــدي طريقته الباي محمد بن عثمان الكبير الذي لم يردّ له طلبا، ضف إلى ذلك أنه جمع بين الشريعة والحقيقـــة وتبحـــر في العلوم العربية والفقهية وعلم التصوف والحكمة، حتى قال فيه صاحب القول الأعم: "فهو فيها البحر الذي لا يعـــرف له ساحل، ولا يبلغ إلى أدناه متطاول". كما نظم الأشعار والمدائح مثل مدحه للشيخ الهاشمي بن علي بن شـــنتوف، خلال عودته من حجته الرابعة، إلاّ أنه أدركته الوفاة في برقة الليبية سنة 1212هـــ/ 1797- 1798م، فدفن بعين الغزال قرب درنة وخلفه من بعده ابنه محي الدين. يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروســـة، ج3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص، ص: 244، 245.

118- ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ....، المرجع الســـابق، ص: 227. أنظر أيضا: جاكر لحسن، المرجع السابق، ص: 27.

119- يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة.... ج2، المرجع السابق، ص: 245.

120- حمدادو بن عمر، المرجع السابق، ص: 44، ينظر أيضا: جاكر لحسن، المرجع السابق، ص: 27.

121- أبو راس الناصر، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته: "حياة أبي راس الذاتية والعلميـــة"، حقّقـــه وضبطه وعلّق عليه: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص: 24.

122- إذ يعطي جاكر لحسن في الدراسة التي قام بها قائمة العلماء، الذين تخرجوا من معهد القيطنة، مثل الأمير عبد القادر (1808- 1883م)، ومحمد مرتضى الحسن الجزائري (1827- 1901م) وغيرهم من العلماء. راجع: جاكر لحسن، نشاط جمعية العلماء المسلمين...، المرجع السابق، ص، ص: 28، 29.

123- أبو راس الناصر، فتح الإله....، المصدر السابق، ص: 43

124- مجموعة أساتذة، الحياة الروحية في الإسلام: معسكر رجال وتاريخ...، المرجع السابق، ص، ص: 13، 15.

125- أبو راس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار لمحمد بن أحمد أبي راس الناصر، ج1. تقديم وتحقيق المخطوط من طرف: محمد غالم، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، 2005، ص:.12

126- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة....ج2، المرجع السابق، ص، ص: 244، 245.

127- ضياء الدين خليل بن إسحاق موسى بن شعيب (ت: 749هـ/ 1348م) من أكبر فقهاء المالكية، شرح جامع الأمهات لابن الحاجب في ست مجلدات، ثم اختصره في الكتاب المعروف بمختصر خليل. إبراهيم بن علي ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ج1، تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2003، ص: 313.

128- منظومة في النحو لجمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي المتوفي بدمشق (672هـ/ 1274م): له بالإضافة إلى الألفية المشهورة: "الشافية في النحو" و"لامية الأفعال" و"الوافية في شرح الكافية له". أنظر: جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1 تحقيق: أبو الفضل محمد إبراهيم طبع بمطبعة عيسى البابلي الحلبي وشركاه، 1964، ص، ص: 130، 137.

129- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي... ج2، المرجع السابق، ص: 239.

130- العيد مسعود، المرجع السابق، ص: 67، أنظر أيضا: حمدادو بن عمر، المرجع السابق، ص: 45.

131- العيد مسعود، المرجع السابق، ص: 67.

132- لزغم فوزية، المرجع السابق، ص: 18.

133- يحي بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة....، ج2، المرجع السابق، ص، ص: 244، 245.

134- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي....ج1، المرجع السابق، ص: 348.

135- المرجع نفسه، ص: 348.

136- محمد سي يوسف، "نظام التعليم في بلاد زواوة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني"، ملتقى الحياة الفكرية في الولايات العثمانية، تقديم: عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1990، ص: 207.

137- ذلك أنّه كان الغرض من تلك التنقلات لعلماء معسكر بزوايا الوطن الغريسي الراشدي، هو تبادل المعلومات والأفكار والفتاوى والآراء الفقهية، مما يوحي بأنها كانت إحدى قلاع التدريس إلى جانب المدرسة. أنظر: مجموعة أساتذة، الحياة الروحية في الإسلام، معسكر رجال وتاريخ....، المرجع السابق، ص، ص: 14، 15.